

من سلسلة لقاءات فتح المجيد في بيان خطورة
الشرك وأهمية العناية بالتوحيد

محاضرة علمية بعنوان:

من أسباب ذل المسلمين عدم اهتمامهم
بتوحيد رب العالمين

لفضيلة الشيخ سعد الزعترى حفظه الله

وجهت لمدينة سلا بالملكة المغربية
حرسها الله راع ورعية

تفريغ المحاضرة ﴿١٥﴾ من :

﴿سلسلة لقاءات فتح المجيد في بيان خطورة الشرك وأهمية العناية بالثوحيد﴾

محاضرة عامة بعنوان :

مِنْ أَسْبَابِ كُذْلِ الْمُسْلِمِينَ
عَمَّا أَهْتَمَّ بِهِمْ
بِتَوْحِيدِ رَبِّ الْغَالِمِينَ

لفضيلة الشيخ :

سعد الزععري

﴿حفظه الله﴾

وجهت

لمدينة سلا بالمملكة المغربية

عرسها الله راع ورعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧١) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١]

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار¹.

وبعد :

فإن كلمة الذل ؛ لا تقع على الأسماع إلا وتهزها هزا، ولا تتسلل إلى القلوب إلا وتصدعها صدعا، فمذاقها مر ونتائجها وخيمة. وقد جاء في تفسير هذه الكلمة عند أهل اللغة أنها بمعنى : الضعف، والمهانة، والقهر، والخنوع.

والذل ضد العز، وذلّال الناس أراذلهم، والذليل هو الضعيف والمهان .

فالذلة شر على المسلم - القوي بدينه، العزيز بشريعته - إذا نزلت به، لذا استعاذ منها النبي ﷺ كما في الحلية بسند حسن لغيره ، " ... فكان النبي ﷺ إذا خرج [يعني من بيته] قال : "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَزَلَّ أَوْ أُزَلَ ، أَوْ أَذِلَّ أَوْ أُذِلَّ ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ"².

وفي رواية عند النسائي وصححها الألباني رحمه الله ؛

(1) تسمية هذه الخطبة المباركة (بخطبة الحاجة) أنظر: كتاب "خطبة الحاجة" العلامة الألباني- رحمه الله- .
(2) " حلية الأولياء " (٢٦٤/٧) لأبي نعيم.

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ"³.

فإذا عرف هذا فإن الواجب على المسلمين هو اجتناب الأسباب التي توقعهم في الذلة والخضوع والمهانة، وأعظم هذه الأسباب عدم اهتمامهم بالتوحيد علماً ودراسةً وعملاً ودعوة، وما أصاب ما أصاب المسلمين اليوم من ذل وهوان إلا بسبب بعدهم عن توحيد ربهم.

إن الجهل بعلم التوحيد - وأنه حق الله على العبيد - يورث الذل والضعف والشقاء، والناظر في الأمم السابقة لما رفضوا دعوة الأنبياء التي جاءت بالتوحيد أصابهم الهلاك وحل ببلدانهم الدمار.

فآدم عليه الصلاة والسلام أهبط إلى الأرض ودعا ذريته إلى التوحيد ونهاهم عن الشرك، فبقوا في عزة وقوة وسلمت أوطانهم من العذاب والذلة؛ لبعدهم عن الشرك واهتمامهم بالتوحيد، إلى أن جاء عصر قوم نوح - عليه الصلاة والسلام - الذين اشركوا بالله - إلا القليل ممن وَّحَّد الله - عن طريق الصور التي صوروها واعتقدوا نفعها وضرها، فأرسل الله لهم نوحاً - عليه الصلاة والسلام - بالتوحيد ونبذ الشرك، فعصوا وتكبروا فأذلمهم الله وأغرقهم وقطع دابرهم ؛

⁽³⁾ صححه العلامة الألباني في "صحيح وضعيف سنن النسائي" (٥٤٧٥).

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يُقَوْمًا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يُقَوْمَ لَيْسَ بِي ضَلٰلَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعٰلَمِينَ (٦١) أَبَلِّغُكُمْ رِسٰلَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤]

ثم جاء من بعدهم : قوم عاد، حيث لم يتعظوا بما حصل مع من قبلهم - في عدم اهتمامهم بالتوحيد - واستمروا في عبادة الأوثان والأحجار حتى أرسل الله لهم هوداً - عليه الصلاة والسلام - فدعاهم إلى التوحيد الذي هو صمّام الأمان من الذل والعذاب وسخط رب الأرض والسموات، فرفضوا دعوته، فحل عليهم غضب الجبار، ونالهم بذلك الذل والهوان،

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۖ قَالَ يُقَوْمًا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٦) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكٰذِبِينَ (٦٧) قَالَ

يَقُومَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةً وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٨)
 أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٩) أَوْعَجِبْتُمْ أَن
 جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَأَذْكُرُوا إِذْ
 جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصُطَةً ۖ فَادْكُرُوا
 ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٠) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ
 وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَاتِّبَاعًا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 (٧١) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي
 فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ
 فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧٢) فَانْجِئْهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ
 بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٣)
 ﴿ [الأعراف: ٦٦-٧٣] ۞

وهكذا حصل لمن جاء بعدهم من قوم ثمود إذ جاءهم نبيهم صالح
 - عليه الصلاة والسلام - بالتوحيد وعبادة الله "العزيز الحميد"، وقد
 كانوا في عزة وقوة وبناءٍ للقصور ونحتٍ للجبال وقوة في الأجساد،
 إلا أنهم لم يعبؤوا بما جاء به من التوحيد، فلم تدم قوتهم ولم يستمر
 عزهم، وتقلب حالهم إلى الذل والضعف والهوان وحل عليهم عقاب
 الملك الديان،

قال تعالى : ﴿وَإِلَى ثُودَ أَخَاهُمْ صُلْحًا ۚ قَالَ يُقَوْمًا عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلْحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ (٧٩) ﴿ [الأعراف: ٧٣_٧٩] .

وتتابع حال الأمم الراضية لدعوة التوحيد، وما وقع منهم من الذل والهوان، إلى أن جاء عهد موسى - عليه الصلاة والسلام - وما لاقاه من آل فرعون وادعاء الربوبية، والألوهية، فذكرهم بوجوب

الاهتمام بالتوحيد، وبطلان أن تكون العبادة لغير الله، فكذبوه وحاولوا قتله؛ لتموت معه دعوة التوحيد، فأنجاه الله ومن معه وأغرق فرعون وجنوده، فتحولوا من العز إلى الذل، ومن السعادة إلى الشقاء، كل ذلك لأنهم رفضوا توحيد الله عز وجل،

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٨) أَنْ أَذُّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ (١٩) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ (٢٠) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢١) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ (٢٢) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٣) فَأَسْرَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٤) وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٥) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٦) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٧) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ (٢٨) كَذَلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ (٢٩) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٣٠) ﴾ [الدخان ١٨-٣٠]

وقال سبحانه واصفاً أيضاً تحولهم إلى الذلة بسبب الشرك ؛

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ۖ أَي : قوم فرعون ؛ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الاعراف: ١٥٢]

وانظروا - في المقابل - ماذا حل بمن تمسك بالتوحيد من قوم موسى - عليه الصلاة والسلام - وصبروا عليه ورفضوا ألوهية غير الله، أن مكن الله لهم في الأرض، وأبدل ذلهم عزاً، وضعفهم قوة وأمنا ومنعة؛ ذلك لأنهم اهتموا بدعوة التوحيد واستجابوا لها ؛

قال تعالى : ﴿ وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ ﴾ أي : صبروا على التوحيد ورفض ألوهية فرعون ؛ ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]

فهذه القصة من أبلغ القصص والمواعظ وأقوى العبر التي يستفيد منها المسلمون اليوم في كيفية خلاصهم من الذل، وسيطرة الأعداء، وانحطاط الأخلاق - إلا ما رحم الله منهم - وذلك بأن يتمسكوا بالتوحيد، ويتعدوا عن كل مظاهر الشرك، ويعتنوا بتربية أنفسهم وأهليهم على الإيمان الصحيح، والعقيدة السليمة، وأن يعتنوا بتقوى الله في السر والعلن، وتقوى الله في البيع والشراء، وجميع المعاملات، وفي البعد عن المعاصي والمنكرات، والإكثار من التوبة والاستغفار،

فإن هم فعلوا ذلك تغير حالهم من الذل إلى العز، ومن الشقاء إلى السعادة، وفتحت عليهم بركات من السماء والأرض ؛

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾ [المائدة : ٦٥ - ٦٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . [الاعراف : ٩٦]

ثم جاءت دعوة النبي ﷺ للناس كافة، جاءت لإخراجهم من ذل عبادة الأصنام والأحجار والأحبار إلى عز الإسلام العظيم القائم على توحيد رب العالمين، جاءت دعوة الإسلام والناس في جاهلية جهلاء، قد عمَّ الشرك والسحر والبدع والظلم وقهر العباد، فالذين آمنوا بهذه الدعوة وعملوا بتعاليمها - وهم الصحابة والسلف الصالح وكل من سار على منهجهم - سعدوا وعزوا وفازوا في الدارين، وأما من عاند وتكبر وكفر فقد هان وذل وكان عاقبة أمره خسرا .

فعندما اهتم المسلمون بالتوحيد سادوا الدنيا وحكموا البلاد الواسعة وبلغ الدين المشرق والمغرب، ومن هنا عرف أعداء الدين أن سبب عز المسلمين هو تمسكهم بتوحيد رب العالمين، فعمدوا ليل نهار على إبعاد المسلمين عن الاهتمام به ودسّوا المستشرقين وأهل التنوير والليبراليين وأضرابهم من أهل البدع والحزبين، فقام هؤلاء بدعوة الناس إلى الدين الوسط - زعموا ! -،

وقالوا للناس : إنَّ الاهتمام بالتوحيد ومحاربة الشرك وعُباد القبور من التشدد في الدين !! وأطلقوا على من تمسك بالتوحيد أنهم وهابية تنفيرا للناس من دعاة الحق - حملة دعوة التوحيد - وقد حاولوا ويحاولون فرض دين التصوف على الناس بحجة أن فيه التسامح وقبول الآخر، وفي الحقيقة هم يريدون تزهيد الناس عن التوحيد، والتسامح في وجود الشرك وقبول تغيير العقائد.

إن الهجمة - على دعوة التوحيد وأهلها - شرسة جدا، لا يصدها إلا الاهتمام بها - أي بدعوة التوحيد - ومعرفة أهميتها، ووجوب نشرها بين أهل الأرض، فبدونها لن تنعم البشرية بالأمن والسلام وبالعزة والوئام، وبدونها لن يدخل أحد الجنة وينعم في الآخرة، ويحظى بالتوبة والمغفرة.

إن المشاهد اليوم هو عزوف الكثير من الناس عن التوحيد ومحاربة الشرك، وأن القليل منهم مَن يهتم به ويدعو إليه، ومن هؤلاء القلة

- وهي كلمة حقٍ تقال - الدولة السعودية التي أكرمها الله عز وجل بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومعه الأمير الصالح محمد بن سعود رحمهما الله، حيث قاما بهذه الدعوة حق القيام، ودعوا الناس إلى توحيد رب الأنام، وتحقق لهم الأمن والأمان، والعزة والرفعة بين الأمم، وما زالت هذه الدولة وإلى يومنا هذا تسخر جهودها في نشر التوحيد بين الناس أينما ما كانوا وتحارب الشرك بجميع صورته، لذا حباها الله بنعمه، ومنّ عليها بالأمن وبالخيرات والبعد عن الذل والهوان، وقد أدرك ذلك أعداء الإسلام فسلطوا سهامهم نحوها وحاربوها ولا يزالون بشتى الوسائل، لأنهم يدركون أن بالقضاء عليها يقضون على دعوة الحق إلا أن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون ؛ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]،

فاحذروا أيها المسلمون، احذروا أن تغفلوا عن تعاليم دينكم العظيم، وعلى رأسه الاهتمام بالتوحيد والدعوة إليه، فإن غفلتم عن ذلك وقعتم لا محال في الشرك والبدع والشبهات، وحل عليكم الذل والهوان، كما حل على الأمم السابقة ؛

قال تعالى : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله : "ولما كان أصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا﴾"⁴ انتهى كلامه رحمه الله.

إن ما يشكوه معظم الناس اليوم من الذلة والقهر والخوف والجوع، إنما هو بسبب مخالفتهم أوامر نبيهم ﷺ ، وعلى رأس هذه الأوامر الاهتمام بالدعوة إلى التوحيد ؛

قال ﷺ : " بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم."⁵

وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : " إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم."⁶

وهنا لي تعليق على الجهاد، لأن الجهاد لا يحمل على السيف فقط وإنما الجهاد يحمل على جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الفساق، فالجهاد الحقيقي أو الجهاد الأول هو جهاد النفس وحملها على طاعة الله تبارك وتعالى ؛ وأما الجهاد بالسيف فله شروط قد ذكرناها في كتابنا "حقيقة الجهاد في فلسطين وموقف المسلم منه"؛

(4) "مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية" (٦٢٨/٧).

(5) رواه أحمد في "مسنده" (٥١١٤) وصححه العلامة أحمد شاكر.

(6) صححه العلامة الألباني في "صحيح وضعيف سنن أبي داود" (٣٤٦٢).

الجهاد إذا أطلق فإنه لا يذهب إلى جهاد الكفار وحمل السلاح فقط - وهذا يحتاج إلى شروط كما قلنا - وإنما يذهب أولاً إلى نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ثم إن ما يشكوه معظم الناس اليوم من الذلة والقهر والخوف كما قلنا؛ هو مخالفتهم لأوامر النبي ﷺ، لذلك أقول : لن ينقذكم أيها المسلمون مما أنتم فيه إلا أن تمسكوا بهذا الدين العظيم، وتسيروا على منهج محمد ﷺ، الصادق الوعد الأمين؛

كما قال أبو برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه : "إِنِّي اخْتَسَبْتُ عِنْدَ اللَّهِ أَنِّي أَصْبَحْتُ سَاحِطًا عَلَى أَحْيَاءِ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، كُنْتُمْ عَلَى الْحَالِ الَّذِي عَلِمْتُمْ مِنَ الذَّلَّةِ وَالْقِلَّةِ وَالضَّلَالَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَنْقَذَكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى بَلَغَ بِكُمْ مَا تَرَوْنَ ، وَهَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَفْسَدَتْ بَيْنَكُمْ، إِنَّ ذَاكَ الَّذِي بِالشَّأْمِ، وَاللَّهُ إِنْ يُقَاتِلْ إِلَّا عَلَى الدُّنْيَا، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَاللَّهُ إِنْ يُقَاتِلُونَ إِلَّا عَلَى الدُّنْيَا، وَإِنَّ ذَاكَ الَّذِي بِمَكَّةَ وَاللَّهُ إِنْ يُقَاتِلْ إِلَّا عَلَى الدُّنْيَا."7

(7) رواه البخاري (٧١١٢).

وقال ابن القيم كما في الزاد: "وَالْمَقْصُودُ أَنَّ بِحَسَبِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ تَكُونُ الْعِزَّةُ وَالْكَفَايَةُ وَالنُّصْرَةُ، كَمَا أَنَّ بِحَسَبِ مُتَابَعَتِهِ تَكُونُ الْهِدَايَةُ وَالْفَلَاحُ وَالنَّجَاةُ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَّقَ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ بِمُتَابَعَتِهِ، وَجَعَلَ شَقَاوَةَ الدَّارَيْنِ فِي مُخَالَفَتِهِ، فَلِاتِّبَاعِهِ الْهُدَى وَالْأَمْنُ وَالْفَلَاحُ وَالْعِزَّةُ وَالْكَفَايَةُ وَالنُّصْرَةُ وَالْوَلَايَةُ وَالْتَّأْيِيدُ وَطَيْبُ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِمُخَالَفَتِهِ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ وَالْخَوْفُ وَالضَّلَالُ وَالْخِذْلَانُ وَالشَّقَاءُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ." ⁸ انتهى كلامه رحمه الله.

فالله، الله في الحرص على التوحيد والإيمان، ليعلو شأننا

وينتصر ديننا، وننعم بالعزة، والرفعة عند مليكنا؛ ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩]

وإياكم ؛ وإياكم، وحب الدنيا والتكالب عليها، فإنه يورث الذلة، والمهانة، واستخفاف الأعداء بكم؛ قال ﷺ : "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله.

(⁸) "زاد المعاد في هدي خير العباد" (٣٩/١).

قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن.

فقال قائل: يا رسول الله ، وما الوهن ؟

قال : **حب الدنيا وكراهية الموت**.⁹

ثم إياكم والظلم، الذي أعظمه الشرك بالله ، ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣]

والظلم مهلكة لصاحبه وعاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة ؛

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَفْرَاةُ أَخْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٥٩]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس : ١٣] .

يا أمة الإسلام انفضوا بهذا الدين وقوموا بواجبه يرفع عنكم ما بكم من ذل وظلم ومحن، ولا ينجيكم مما أنتم فيه الآن إلا أن تتمسكوا وتهتموا بالتوحيد ، ومحاربة الشرك ، والاعتصام بجبل الله جميعا، ونبذ الفرقة والخلاف، وتحكيم شرع الله في كل الأمور، فيا أهل سوريا، وليبيا، واليمن، وفلسطين، ولبنان، والعراق، وغيرها من بلاد

⁹ صححه العلامة الألباني في "صحيح وضعيف أبي داود" (٤٢٩٧) وفي "السلسلة الصحيحة" (٩٥٨).

الإسلام، عودوا عودةً صادقةً إلى دين ربكم واهتموا بالتوحيد وعلموه أبناءكم واعملوا فيه على أرضكم، كي تفلحوا وتسعدوا في دنياكم وأخراكم .

وأختم هذه الكلمة بارك الله فيكم بفتوى ذكرت للجنة الدائمة، أو سؤال وجه إليهم :

س ١: كيف تكون العزة للمؤمنين وهم الآن ضعفاء في العالم الذي فسد جوانبه وأوسطه، والنصارى واليهود هم الذين يسيطرون في العالم كيف يشاؤون، كيف تكون العزة للمؤمنين؟

فكان الجواب منهم بارك الله فيهم ورحم من مات منهم ؛

قالوا : « لا تحصل العزة للمؤمنين والنصر على الأعداء والتمكين في الأرض إلا بطاعة الله تعالى، ورسوله ﷺ، والعمل بالإسلام والإيمان، ظاهراً وباطن، وقد جاء في القرآن، والسنة عن السلف الصالح من الآثار ما فيه عظة وإذكار ؛

قال الله تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

وقال سبحانه : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ ﴾ (٤١) [الجح: ٤٠-٤١]

وقال جل وعلا : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بَشَيْئًا ۚ ﴾ [النور: ٥٥ - ٥٥].

وقال جل جلاله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧]

إلى غيرها من الآيات الكريمة التي بينت ووضحت، أن تمكين المؤمنين وعزهم في هذه الحياة مشروط بقيامهم بما أوجب الله عليهم من توحيده، وتعظيمه، وإجلاله، والعمل بكتابه، وإتباع سنة نبيه محمد ﷺ، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومحبة أولياء الله المؤمنين، وبغض أعدائه من المنافقين والكافرين، ومجاهدتهم لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وغير ذلك من لوازم الإيمان.

وثبت عن النبي ﷺ ، من حديث ابن عمر أنه قال : " بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم"¹⁰ أخرجه الإمام أحمد وأبو داود، فبين عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث أن كل من خالف أمره فله نصيب من الذلة ، والصَّغار، بحسب مخالفته ومعصيته ؛

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث : " ومن أعظم ما حصل به الذل من مخالفة أمر الرسول ﷺ : ترك ما كان عليه من جهاد أعداء الله ؛ [تعقيب من الشيخ سعد : " كما قلنا لكم عن معنى الجهاد ؛ يكون الجهاد بالنفس، يكون الجهاد بالكلمة ، يكون الجهاد بنشر التوحيد ، أعظم الجهاد الآن هو نشر التوحيد أيها الإخوة، وأما جهاد السيف، فهذا له شروط إن توفرت فنعم، وإلا فالأصل أن الجهاد باقٍ كجهاد الكلمة، جهاد القلم، الجهاد بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى]؛

ثم قال ابن رجب : " فمن سلك سبيل الرسول ﷺ في الجهاد عز، ومن ترك الجهاد مع قدرته عليه ذل ، وقد سبق حديث " إذا تباعتم بالعينة، واتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله

(¹⁰) رواه الإمام أحمد في "مسنده" (٥٦٦٧) و صححه العلامة الألباني في " صحيح الجامع الصغير و زيادته" (٢٨٣١).

سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه من رقابكم حتى تراجعوا إلى دينكم"¹¹ ، فمن ترك ما كان عليه النبي ﷺ ، من الجهاد مع قدرته، واشتغل عنه بتحصيل الدنيا من وجوها المباحة حصل له الذل، فكيف إذا اشتغل عن الجهاد بجمع الدنيا من وجوها المحرمة؟¹² انتهى كلامه رحمه الله.

ولقد عرف السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم هذه الحقيقة ، وهي: أن العزة في التمسك بالإسلام، وإتباع النبي ﷺ، والاجتهاد في طاعة الله ورسوله، والحذر من معصية الله ورسوله، فصدرت منهم كلمات منها: ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمهما ابتغينا العزة من دونه أذلنا الله."¹³

وثبت عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه لما فتح المسلمون قبرص،... جلس أبو الدرداء رضي الله عنه يبكي، فقال له جبير بن نفير: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ وأذل فيه الكفر وأهله؟

(¹¹) سبق تخريجه .

(¹²) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/٢٤٩).

(¹³) قال العلامة الألباني صحيح موقوف في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢٨٩٣).

فقال رضي الله عنه: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.¹⁴

والحاصل أن على المسلم مسؤولية تحقيق العزة للمؤمنين بحسب قدرته، واستطاعته فيكون بنفسه قائما بأمر الله تعالى عاملا بالإسلام والإيمان، ظاهرا وباطنا، ناصحا لإخوانه المسلمين آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر حتى تصلح أحوال المسلمين، أو يلقي الله على تلك الحال وقد اتقاه حسب وسعه والله المستعان»¹⁵. انتهى جواب اللجنة الدائمة للإفتاء.

¹⁴ "حلية الأولياء" (٢١٦/١) لأبي نعيم.

¹⁵ الفتوى رقم (٢١٠٠٩).

وبهذا أختتم هذه الكلمة .

وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، أَنْ يَفْقَهُنَا فِي دِينِنَا وَأَنْ يَبْصُرَنَا فِي
عُلُومِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ دَعَاةً لِلتَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْفَرَجِ الْعَاجِلِ
لِإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَهْدِينَا لِلْعَمَلِ بِأَحْكَامِ شَرْعِهِ الْقَوِيمِ إِنَّهُ وَلِي
ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

المحاضرة (١٦)

تفريغ المحاضرة (١٦)

من سلسلة لقاءات فتح الجيد في بيان خطورة
الشرك وأهمية العناية بالتوحيد

محاضرة علمية بعنوان:

**توحيد رب البريات حماية من التطرف
في المجتمعات**

لفضيلة الشيخ يحيى النهارى
حفظه الله

وجهت لمدينة تمارة بالمملكة
المغربية حرسها الله راع ورعية